تاريخ الأمازيغ

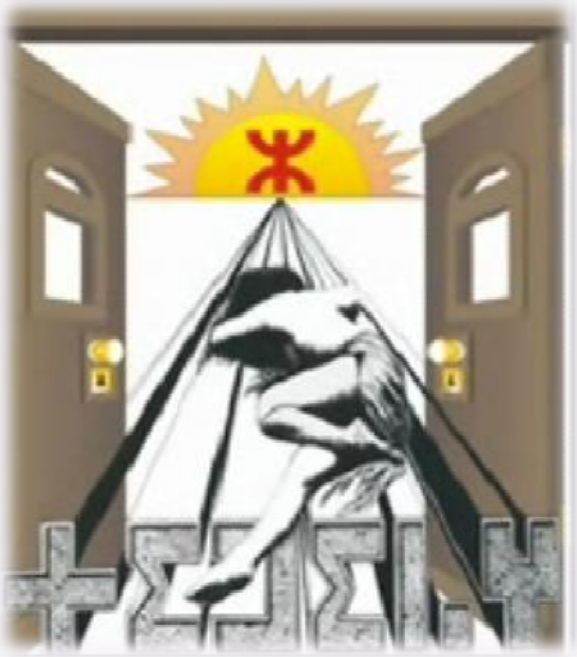

د. حجوي غوتي

دكتوراه في الآداب

عضو هيئة التدريس بجامعة تلمسان

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

g.hadjoui@yahoo.co.uk

مقدمة

بدأت بعض الأصوات داخل المجتمع العربي الإسلامي تطرح جملة من التساؤلات: كيف يمكن رفع التحدي؟ كيف السبيل إلى تحقيق التطور دون التنكّر للذات؟ وقد اندرج الجدل حول تحرير المرأة في سياق المساعي الهادفة إلى تحقيق النهضة السياسية والثقافية والدينية لمجمل المجتمع الإسلامي.

إنّ الحديث عن مصطلح الأمازيغية يستلزم بالضرورة التطرق إلى أصل البربر والبربرية حيث يرى بعض الباحثين أنّ هذه الكلمة يعود أصلها إلى اللغة الليبية (Lybique)[1] وكلمة "الليبي" اشتقت من ليبُو (Libou)، وكانت تعني عند المصريين القدامى بسكان إفريقيا[2]. وهناك مَن ذهب إلى أنّ كلمة البربر ظهرت في العصر الروماني، والبربريّ عندهم هو الوحشي[3]، وكانت تطلق على الشعوب الغريبة عن حضارتهم وخاصةً سكان المغرب كونهم يعيشون في الجبال[4]، ثمّ خصَّ بها أهالي شمال إفريقيا.

وتبقى كلمة "البربر" مفتقرة هي الأخرى إلى دقة المعنى والأصل نظراً لتعدد الآراء حولها، والتي تبقى مجرد فرضيات قابلة لعدة تأويلات، مع العلم أنّ البربر اختاروا لأنفسهم تسمية "أمازيغ"[5] خلافا لكلمة البربر، والتي تجمع على "إمَازِيغَنْ" ومؤنثها "تَمَازِيغَتْ" ومعناها الرجل الحر والشريف.

الموقع الجغرافي للبربر

يعيش البربر في حوض حضاري شاسع مُمتد من مصر شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا[6]. وهم المعمّرون الأوائل لشمال إفريقيا وهذا منذ عشرات آلاف السنين. وحسب إحصائيات سنة ١٩٨٦، فقد قُدّرت النسبة المئوية للأمازيغ كالتالي: يعتبر المغرب الأقصى البلد الأكثر كثافة سكانية لأصل البربر، فهم يشكلون نسبة ٤٠ % من سكان هذا البلد، أي ما يُعادل تقريبًا ٩,٥ ملايين بربريّ من مجمل ٢٤ مليون. وهم متواجدون بجلّ المناطق: بالجبال والكتلة الريفية (Le Massif du Rif) والأطلس الأوسط (Moyen Atlas) بالشمال الشرقي والأطلس الكبير وأطلس الجنوب الغربي، أي أنهم موزّعون على معظم المناطق المغربية.[7] وتأتي الجزائر في المرتبة الثانية بنسبة ٢٠ % (٥,٤ ملايين بربريّ من ٢٢ مليون نسمة). ومن أهم مناطق تمركزهم: القبائل بالكتل الشمالية (Les Massifs du nord) والأوراس بالشرق والتل الجزائري (العاصمي) والوهراني وجبال البليدة والورسنيس وبني مسوس ... ويتواجدون بكثرة في الجنوب، بواحات وادي ريغ بورقلة ونْفُوسَ ومنطقة وادي ميزاب وقصور قورارة وتْوَاتْ وتِدِكَلْتْ[8]. وحتى ليبيا بها نسبة معتبرة من البربر وككل مناطق شمال إفريقيا فهم يقطنون الأماكن الجبلية كبَرْقه وغُورْيَامْ ونْفُوسَة، وبواحات غدامس وسكنه وتِمِيسَّ وزْوَرَ على الحدود التونسية بالشمال الساحلي. أمّا بربر تونس فنسبتهم ضعيفة جدًّا إذا ما قُورنت ببلدان المغرب العربي، فهم يمثلون واحداً بالمائة (٠١ %) ويتمركزون في جربة بكثرة وفي وسط وجنوب البلاد من تْمَاقُورَتْ و تَمَزْرَاتْ و زْوَارَ ...[9] ويوجد أثر البربر كذلك بواحة سِيوَا (Siwa) بمصر والتي لا تبعد عن الحدود المصرية الليبية. وإضافة إلى ما سبق هناك جماعة من التوارق تعيش في شمال المالي والنيجر ونيجيريا[10].

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حجوي غوتي، تاريخ الأمازيغ.- دورية كان التاريخية.- العدد العاشر؛ ديسمبر ٢٠١٠. ص٦٦ — ٧٠.

(www.historicalkan.co.nr)

البربر "الخلفية التاريخية"

ما ينبغي ذكره هنا هو أنّ البحث في موضوع القضية الأمازيغية وليد القرن ١٩م ، ودراسات هذا الموضوع تداخلت فيها الكثير من العوامل والأغراض الذاتية. لكنّ هذا لا ينفي وجود العديد من الأبحاث التي تناولت البربر وتاريخهم بدءً بالعصور القديمة إلى وقتنا الحاضر. ومن بين من بَحثوا في هذا الميدان هم: المؤرخ الروماني سالوستس (Salluste)، وبليني (Pline l'ancien)، وبروكوب (Procope) وابن خلدون ، وكذا محفوظ قداشي في كتابه "الجزائر في العصور القديمة" ، والعديد من الأنثروبولوجيين الفرنسيين. وكانت آراؤهم مختلفة ومتباينة بتعدّد الفرضيات حول أصل البربر الأوائل ، فمنهم من وصل إلى أنهم من الفراعنة المصريين واستدلّوا بالكتابات والصور التي وُجدت على جدران آثارهم[١١]. لكنها اعتُبرت فرضية أسطورية وإتيمولوجية في نفس الوقت.

وهناك مَن أرجع أصل البربر إلى كنعان كالمؤرخ بروكوب (Procope) الذي رافق الجنرال البيزنطي بليسار (Bélisaire) إلى إفريقيا[١٢] حيث قام بأبحاث في تاريخ البربر والتي جاءت كلها تدعيمًا للمعطيات التي تُنسِب الأمازيغ إلى أصل كنعاني ، نزحوا من الشرق الأوسط إلى إفريقيا بحثًا عن بسط نفوذهم ... وكان يُطلق عليهم آنذاك ما يُسمّى باللغة الفرنسية "Maures"[١٣] أي مغربي.

وفي موقع آخر ذكر أبو جعفر بن جرير الطبري (توفي سنة ٣١١ هـ) أنّ جنس الأمازيغ من ذرية سام بن نوح ، فهم بنو ثملان بن مَارَاتْ بن فَرانْ بن عمر بن عمليق بن لوذ بن سام بن نوح. وما خَلاَ صنهاجة وكتامة فإنهما بنو إفريقش بن قيس بن صيفي بن سبأ[١٤]. وأمّا المسعودي (توفي سنة ٣٤٦هـ) يرى أنّ البربر من ولد كوش بن كنعان بن نوح. و لمّا تفرّق أولاد نوح في الأرض ، توجّه ولدكوش بن كنعان إلى المغرب ...[١٥] وحتى ابن خلدون ترك أثرًا حاسمًا في دراسته العديدة في سياق الكلام عن تاريخ البربر وأصلهم إذ ينقل عن النسّابة من أنّ البربر يجمعهم أصلان كبيران هما: " بَرْنِسْ ومادْغيسْ الملقب بالأبْتر من نسل مَازيغْ "[١٦]. وأثبت ذلك بقوله: " إنّ النسّابة يجمعونهم في إزادجة ومصمودة وأوربة وكتامة وصنهاجة وأورغة"[١٧]. وفي موضع آخر يُشير إلى أنّ صنهاجة وكتامة ذوات أصول عربية من قبائل حِمْيَر من أصول حامية من اليمن[١٨].

ويرى المؤرخ الجزائري عبد الرحمن بن محمد الجيلالي[١٩] أنّ أصل البربر هم ساميون من ابناء مازيغ بن كنعان ، فهم الأمازيغ كما جاء في تصريحهم أمام الخليفة عمر بن الخطاب حينما ذهب إليه الوفد بعد فتح مصر ، فانتسبوا أمامه إلى مازيغ. ويؤكد الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه " أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" على أنّ الأمازيغ هم عرب متقدمون في نزوحهم إلى شمال إفريقيا وأنّ موجة الفتح الإسلامي كانت فرصة التقى فيها أبناء العمومة على أرض إفريقيا بعد أن كانوا قد التقوا على أرض الشام[٢٠].

وخلافًا لآراء كلّ المؤرخين السابقين أعطى الفرنسيون استنتاجات تُوحي بأنّ البربر من أصل أوروبي ، وأوّلهم المؤرخ برترون (A.Bertrand) الذي توصل في أبحاثه التي قام بها سنة ١٨٦٣م إلى النتائج التي افترض فيها أنّ " البربر منحدرون من نسب كلتي (Celtique)"[٢١]. وفي نفس الفترة قام (M. Olivier) رئيس أكاديمية بون (Bône) -مدينة عنابة حاليًا- بأبحاث في هذا الميدان اكتشف من خلالها أنّ "البربر من الإغريق الذين غزوا إفريقيا"[٢٢].

ولكن ليس من المنطق العلمي المنصف أن نحكم على قوم و نُصنّف سلالتهم من خلال دراسة الأوصاف الفزيولوجية للجسم والتي توحي بطبع الإنسان ، وهذا هو منهج الفراسة الذي اعتمده برترون (Bertrand) في بحثه. أمّا (Olivier) فابتعد عن الملاحظة واتخذ طريقة التحليل العلمي كوسيلة يتقرّب بها إلى نتائج موضوعية تُبرّر رأيه في تقارب لهجات البربر والإغريق متخذًا علم اللسانيات التقريبية منهاجًا ، ودعمّ رأيه بر ثولون (Bertholon) سنة ١٩٠٧م بتصنيف اللغة البربرية ضمن اللغات "Illygro - Pelasgiques" التي أتى بها الإغريق أثناء استعمارهم لشمال إفريقيا.

وأهم ما يمكن استخلاصه من خلال سياق الكلام عن تاريخ البربر أنّ معظم النتائج أجمعت على أنّ الجذور الأولى للبربر تفرّعت من نسل حام بن نوح ، وقد اعتُبرت هذه الرؤى والافتراضات غير موضوعية لأنها ليست قائمة على معايير علمية دقيقة. فلهذا تعذّر علينا وضوح الأساس التاريخي لهذا الجنس ، لكن لا أحد يشكّك في أنّ الأمازيغ هم السكان الأوائل لشمال إفريقيا ، عاصروا الرومان وعايشوا اليونان والعرب.

التاريخ اللغوي للبربر

يتضح أنّ اللهجات الأمازيغية لم تنقرض ولم تمُت ، بل أضحت محط أنظار واهتمام وجدال العديد من الباحثين الذين سارعوا في إبراز الحقائق التاريخية واللغوية عبر تعاقب الأمم العديدية باختلاف لغاتها وإلزام الأهالي التكلّم والتعامل بشكل تعسّفي بلغة المحتل من فينيقيين وإغريق ورومان وفرنسيين ... باستثناء العرب في تعاملهم الودي ، الأمر الذي جعل البربر يتقرّبون إليهم ويُسارعون في تعلم لغتهم.

(أ) علاقة الأمازيغية باللغة البونيقية:

كان الغزو الفينيقي للمغرب القديم سببًا مباشرًا في تدمير الوحدة الاقتصادية والثقافية وحتى اللغوية للبربر ، ممّا أدّى بظهور عدّة بطون من القبائل نسبهم واحد[٢٣]. فتنوعت اللغة البربرية إلى عدّة منطوقات واختلفت من منطقة لأخرى: مثل الشليحة والشاوية والميزابية والترقية في الجزائر ، ولهجات أَوْجِيلَ (Awjila) ونفوسة وغدامس وصكنا (Sokna) في ليبيا ، ولهجة سند (Sened) في تونس ، ولهجة سِيوَا (Siwa) في مصر ، ولهجات الشلح والريف والبربر وتمازيت بالمغرب الأقصى[٢٤].

لقد خُصّص استعمال هذه اللهجات في التعبير عن المجالات العامة من (فلكلور شعبي وعن أمور ذات الاستعمال اليومي الدائم مثل المأكولات والفلاحة والشؤون المنزلية ...) أي اقتصرت على التراث الشعبي الشفهي بعيدة عن الحياة الرسمية كالتعامل الإداري وشتى العلوم التي لا تتحقق تواصلاتها إلاّ عن طريق اللغة المكتوبة.

ويتمثل سبب انتشار اللغة البونيقية وحلولها محلّ اللغة البربرية في مرحلتين: الأولى حينما استحوذ الفينيقيون على سيرتا (قسنطينة حاليًا وكانت عاصمة النوميديين تحت حكم ماسينيسا) وجعلوها عاصمة لهم واستقرّوا فيها. ثمّ تأتي مرحلة تهميش اللهجات البربرية عن الحياة الرسمية[٢٥] والتي ظلّ فيها اللسان البربري مدحورًا على مرّ

السنين لأنّ الحضارة الفينيقية كانت مزدهرة ولم يكن للجزائريين لغة تماثل لغتهم ولا حضارة ثقافية في مستواهم.

إنّ فرض اللغة البونيقية على الأسر البربرية الحاكمة في التعاملات الرسمية جعلتهم يُدَوِّنُون أساطيرهم وينقشون (يطبعون) نقودهم بالأحرف والكتابة البونيقية وحتى الإغريقية فيما بعد ، وخير دليل على هذا يتمثل في النقوش التي وُجدت في معبد ثُوقَّا (Thugga) والتي تحمل كلمات تذكارية قد نحتها ميسيبسا (Micipsa) في شأن أبيه ماسينيسا (سنة ١٣٨ ق.م)[٢٦].

ومن خلال مقارنة وتحليل بعض النصوص القديمة يقول شابوط (Chabot): "بدت النصوص المكتوبة بالبونيقية مترجمة عن النصوص الأصلية المقدّمة باللغة الليبية"[٢٧]. وهذا ما يؤكد أوّل ازدواجية لغوية (ليبية وبونيقية) عرضها اللسان الأمازيغي ، وهذا أثناء فترة الوجود الفينيقي في شمال إفريقيا ، وينفي اندماجهم الثقافي كما أثبته وأظهره شاكر (Chaker) حين أحصى بعض الأسماء لحكام البربر كـ:"يوبا JUBA، غايا GAYA ، يوغرطا JUGURTHA وماسينيسا MASSINISSA"[٢٨]. وهي أسماء موجودة كلها عند التوارق حاليًا.

(ب) علاقة الأمازيغية بالإغريقية:

دخلت اللغة الإغريقية اليونانية إلى شمال إفريقيا ابتداءً من القرن السابع قبل الميلاد ، وكان الإغريق متمركزين بكثرة في سيرتا ، وكان استعمال اللغة اليونانية رسميًّا في الحياة العملية والعلمية. فلذلك تَوجّب على رجال النخبة من البربر كمهندسين ورسامين وموسيقيين تعلم الأبجدية الإغريقية ، ومن بينهم ميسيبسا وماسطنبال (Mastanbel)[٢٩] والدليل على ذلك "المسلات والنصب التذكارية المنقوشة بالحروف اليونانية والتي وُجدت في معبد الحفرة"[٣٠]. بالإضافة إلى ١٣٠ لقبًا ذي أصل إغريقي والذي تمّ التنقيب عنها في نفس المنطقة [١] من طرف علماء الآثار.

استبعدت الدراسات التاريخية حقيقة تفتح البربر وذوبانهم الكلي في ثقافة الإغريق ، ومن جهة أخرى أكدّت على احتمال تأثر الأقلية من حكام البربر باللغة اليونانية. وإنّ صحة وجود اللغة الإغريقية بشمال إفريقيا لا شك من وقوعها لما فيه من بقايا أثرية مادية كتلك التي وُجدت منقوشة في المعابد وعلى الأضرحة. ولكنّ الدرس اللغوي ينفي أية علاقة لغوية تأثرية بين لغة الإغريق والبربر ، لأنّ تطور اللغة واللهجة يحمل في طياته أصولاً لبعض الكلمات المأخوذة أو الدخيلة.

(ج) علاقة الأمازيغ باللاتينية:

بدأ الرومان في احتلال شمال إفريقيا سنة ١٤٦ ق. م. فوجدوا مقاومة بربرية قوية ، خاصةً بالمناطق الجبلية والداخلية[٣١]. كما انتهج الرومان سياسة تستهدف المواقع الريفية لغرس اللغة اللاتينية ، لأنّ البدو أقل الجماعات اللغوية « Communauté Linguistique » تعرضًا للتأثير والتأثر والأكثر تمسكًا بعاداتهم وثقافتهم. ولكن هذا الاستعمار فشل في سيطرته على المناطق المستهدفة ممّا دفع الرومان إلى طرد البربر من المدن نحو الأرياف والصحاري. وكان هذا يُدعى بـ"المَنْجَى التاريخي"[٣٢] والذي قد صان الأغلبية الساحقة من البربر من التكلم باللغة اللاتينية.

إنّ الواقع التاريخي المتمثل في الغزو الروماني المستبد يُوحي بأنّ البربر رفضوا ثقافة ولغة المستعمر الذي استطاع حينذاك أن يُثبتها في المدن الكبرى ولو بشكل نسبي. وتَمّ ذلك عن طريق قوانين كانوا قد أتوا بها من بلادهم والتي لا تخدم مصالح البربر وخاصة الذين يعيشون في المدن حيث فُرضت اللغة البونيقية من قبل ، بسبب تعاملهم الرسمي في الإدارات والمحاكم. ونتج عن هذا التنوع اللغوي ما يُسمى في علم اللسانيات "ثلاثية اللغة"[٣٣] (Trilinguisme) بين الليبية والبونيقية واللاتينية. وهذا لا يُراد به اندماج وذوبان البربر في لغة الغير ، بل الحفاظ على المصالح العليا لأقلية أمازيغ المدن جعلتهم يتصنعون في تكلمهم باللغة اللاتينية. وأكد هذا ابن عبو بقوله: "أثناء تواجده في شمال إفريقيا جعل الحكم الروماني من تعدّد اللغات قاعدة ... وتعايشها يتحقق إلاّ برغبة الفرد في التعلم والتكلم بهذه اللغات معًا"[٣٤]. وحتى الأبحاث الأثرية الليبية أعطت كالعادة دليلها المادي بتمسك البربر بلغتهم والذي أوضحته النقوش الموجودة على المعابد كـ (ضريح ماسينيسا بالخُرُوبْ وضريح آبَا لِسّ بمقبرة تِنْ هِينَانْ ...)[٣٥].

يُعتبر الاستعمار الروماني المسئول الرئيسي في زعزعة الكيان الحضاري البربري بحصاره له وتهميشه لثقافته ولغته ، فالأمازيغ استضعفوا بالاستعمار وبالاحتلال المتتالي عليهم ، وهو الشيء الذي جعل اللغة الخطية المكتوبة تندثر وتتحول إلى لهجات منطوقة. فمهما يكن ، فإنّ عودة اللهجات الأمازيغية إلى طبيعتها وصفتها الأولية (الشفوية) جعلت شخصية الأمازيغي تتزن بتطويره لثقافته وبضبطه للغته وترقيتها والتي من المفروض أن تكون لها قواعدها الخاصة بها ، وهذا لا يعني أنّ اللغة الأمازيغية لم يكن لها نظامها الخطي الأبجدي ، "إنه قد ضُبط و أُحكم في القرن السادس قبل الميلاد"[٣٦].

ومن هذا المبحث التاريخي للعلاقة اللغوية البربرية باللغات القديمة ، يُلاحظ أنّ هذه اللغات كانت دائمًا وباستمرار في مكان الرفض من طرف البربر. وحتى التحاليل والأبحاث اللغوية أجمعت على أنّ اللهجات الأمازيغية الحالية خالية من الكلمات الدخيلة من بونيقية وإغريقية ولاتينية ولو أنّ هناك بعض الكلمات القليلة المستعملة حاليًا كما اتضح في الجدولين السابقين.

(د) علاقة الأمازيغ بالعرب :

تُعدّ اللغة العربية أكثر اللغات الرسمية انتشارًا في شمال إفريقيا. وإذا كانت قد نشأت في آسيا وانتشرت في غربها بعد الفتح الإسلامي ، فانتشارها زاد مع مرور الزمن بصورة سريعة حتى أصبح أبناء العربية في المغرب العربي كثيرين[٣٧]. وكانت درجة انتشار العربية متفاوتة من مكان إلى آخر ، وهذا راجع إلى اختلاف ظروف التعريب التي مرت بها كلّ منطقة من مناطق شمال إفريقيا الذي يتميز بشساعة موقعه الجغرافي ، والذي عرف تعاقب الأمم العديدة بلغاتهم المختلفة والتي لم تجد مكانتها على لسان الأمازيغي ، وعلى عكس الأوائل ، قد تَمّ قبول العرب من البربر بسهولة وأبدوا لهم رغبتهم في التعايش معهم وتعلم لغتهم.

إذن ما هي الأسباب والعوامل التي جعلت الأمازيغ يعتنون باللغة العربية منذ الفتوحات الإسلامية الأولى إلى يومنا هذا؟ وما هي العلاقة الاجتماعية اللغوية بين البربر والعرب ؟

(١) العامل الديني:

إذا ما تصفحنا الكتب التي قامت بدراسة تاريخ البربر ، سواء كانت أوربية أو عربية أو مغاربية ، يمكننا استخلاص أنها تتفق على أن سبب سرعة انتشار اللغة العربية يعود بالدرجة الأولى إلى علاقتها الوطيدة بالدين الإسلامي الذي اعتنقه الأمازيغ بفضل الفتوحات الإسلامية ، إذ "امتزج العرب بالبربر في أمة واحدة"[٣٨]. وانتهجوا

سياسة السلم والمحبة والمودة والتآخي بينهم. تجسيمًا لقوله: {وجَعَلْناكُمْ شُعُوبًا وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ}[٣٩].

لقد أقبل البربر على الإسلام جمّة عندما أدركوا أنه يرفع عنهم ظلم المستعمر البيزنطي[٤٠]، وكان هذا منذ الوهلة الأولى لأن الاستعمار البيزنطي قد فرض عليهم الجزية وضريبة العقار. فزادت "رغبتهم في مزايا هذا الدين"[٤١]، واندمجوا فيه بسرعة وهذا منذ أن شُرع في إرسال البعثات العلمية إلى شمال إفريقيا لخدمة الإسلام. لأن معتنقيه لا يفهمون شريعة هذا الدين إلاّ بتعلم لغة القرآن الذي نزل {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}[٤٢] و كقوله: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا}[٤٣].

وهذا لنشر الثقافة الدينية، وتعليم الناس الفرائض، والحلال والحرام. فساهم البربر بدورهم في الفكر الإسلامي بتراثهم الذي كُتب باللغة العربية الفصحى بحيث أدركوا بوعيهم الإسلامي - لا إسلام بدون قرآن و لا قرآن يُدرَك ويُفهَم جوهره بدون لغة عربية فصيحة[٤٤]. دون أن يهملوا اللغة الأم والاعتزاز بها وعدم تعصبهم لها. وهناك جماعة من البربر ذهبت إلى حد بعيد في إسلامها فاعتمدت الإباضية مذهبًا لها. فمثلاً إن منطقة وادي ميزاب (والتي هي محور هذه الدراسة اللغوية) منذ القديم، قد انطلقت من الواقعة القرآنية الثابتة وعلومها لأن القرآن الكريم هو الأصل فلا يمكن فهمه وإدراك أسرار علومه وبلاغته إلا بتعلم اللغة العربية الفصحى الخالية من اللحن. فمن هنا يتضح أثر اللغة العربية في المؤسسات الثقافية، لاسيما في المساجد التي جسّمت هذه الحقيقة في كتاتيب الأطفال الصغار. وفي هذا الشأن يقول محمد علي دبوز (إن الميزابي يعتني بحفظ القرآن كل الاعتناء، إنه أساس العربية والدين، ويعتني كذلك بتعلم العربية اعتناء كاملاً، فمن لا يعرف العربية الفصحى من العلماء لا يُحضَ في ميزاب بأي احترام ...)[٤٥]. إذن إنّ تعليم القرآن والشريعة والفقه لا يمكن أن يُستوعب بدون تعلم اللغة العربية وهذا ما جعل البربر يتعربون.

(٢) العامل الإنساني السلوكي:

قد اعتُبر العرب في بداية الأمر غزاةً دخلاء فقاومتهم قبائل البربر مقاومة عنيفة، ثم انقلب الحال وإذا بالعرب يُنظر إليهم كمحررين لشعب الجزائر من الاضطهاد البيزنطي[٤٦] الذي لم يترتب عنه إلا التأخر والانحطاط لأهل هذه المنطقة. فزرعوا فيهم الاستقامة والمساواة والعدالة الاجتماعية التي لم تكن موجودة إبّان الاحتلال الفينيقي والروماني ... فرأوا فيهم "المنقذ الوحيد ممّا هم فيه من الميز العنصري والجور السياسي والفوضى الشاملة"[٤٧].

وكذلك هناك أحداث أخرى جعلت البربر يذوبون في الكيان العربي، ومنها كما يرى أبو القاسم سعد الله[٤٨] في مقارنته بين "الإنسان العربي" و "الإنسان الأمازيغي" التشابه الكبير في الأوصاف والسمات الخَلقية والخُلقية. وأكد عبد الرحمن محمد الجيلالي[٤٩] هذا التطابق في ملاحظته أن زناتة و برغواطة ونفوسة ولواتة و هوارة ... كلها قبائل ذات تشابه كبير مع العرب في حياتهم وميولاتهم واتجاهاتهم. فمثلاً كلاهما، العربي والبربري، يكره السلطة والتسلط وكلاهما محب للحرية إلى حد كبير. وعلى هذا المستوى تجمعت العوامل كلها لتصنع من العامل اللغوي عنصرًا أساسيًا في التواصل اللغوي اليومي بين العرب والأمازيغ، وهذا ما زاد في تدعيم الأواصر اللغوية بين الفئتين بحيث استطاع الأمازيغ أن يتقبلوا اللغة العربية لأنهم لم يكونوا مجموعة لغوية متميزة[٥٠].

لم تكن لغة الأمازيغ لغة راقية ذات ثقافة وحضارة في المستوى الذي يمكنها أن تقف في وجه أية لغة. لقد كانت لغة التخاطب ولم يكن لديها تراث مكتوب يحفظها[٥١]. وهذا ممّا زاد في انتشار تعريب البربر الأوائل لأنه لم يكن يوجد لديهم يومئذ مدنية سالفة تتركز على لغة متينة وآداب متأصلة راسخة الجذور، أو فلسفة عريقة ذات مقوّمات تستطيع أن تقف في وجه الفاتح ولغته فتقاومهما[٥٢]. فلهذا هَجر البربر لغتهم وبادروا بتعلم اللغة العربية حتى طغت على لغتهم. وأوضح برهان على هذا هو معجزات البيان على لسان القائد البربري طارق بن زياد النفزي[٥٣] في تلك الخطبة المؤثرة البليغة التي سجلها التاريخ، وهي خطبته أمام جيشه المغوار يوم تقدم به لفتح الأندلس.

وكانت الموجة الثانية من نزوح العرب على المغرب العربي عامة والجزائر بالأخص بمثابة الخطوة الجبارة لتعريب الأهالي، وكان هذا في القرن ١١م عن طريق قدوم الهلاليين الذين كانوا يتكلمون بلهجات عربية بدوية. حيث توغلوا في القرى والأرياف وخاصة الجنوبية منها، فساعدوا البربر في تعريبهم. ويرى عبد الرحمن الجيلالي[٥٤] أن هذا المنطلق التاريخي هو البداية الجديدة لفساد اللسان الأمازيغي وحتى العربي، وهذا عن طريق تداخل الألفاظ بين اللهجات الأمازيغية والعربية من جهة ، وبسبب اقتباس وتداخل الأصوات اللغوية بينهم من جهة أخرى، وبالتالي ظهور التغير اللغوي تدريجياً.

وقد أوضح فليب مارسيه (Philipe Marçais) هذا الخلط اللغوي الذي أنتجته التواصلات اللهجية العديدة والتي كانت سائدة خاصةً ما بين فترة الفتوحات الإسلامية والهجرة الهلالية. واعتبره بـ" الدلالة التاريخية القاطعة في حدث الجماعة اللغوية"[٥٥]. وأمّا عرب الأندلس الذين جاءوا فارين من إسبانيا واستقروا في سواحل المغرب العربي فقد كان لهم تأثير قويّ في تعريب بربر الشمال المتمركزين في السواحل. وحتى الوجود العثماني والاحتلال الفرنسي كان سببًا في تمتين العلاقة بين العرب والبربر الذين أُزيحوا من أراضيهم الخصبة ليحلوا محلهم. وهذا ما جعل البربر ينحازون أكثر للعرب وللغتهم.

الهوامش و الإحالات:

(١) ينظر:

Julien, (Ch. A), « Histoire de l'Afrique du nord - Tunisie, Algérie et Maroc ». Tome I, Des origines à la conquête Arabe (647 Après J.C), Coll. « Bibliothèque Historique » 2ème ED. Payot, Paris 1964. Page 59

(2) ينظر:

F. Decret et M. FANTAR, : « L'Afrique du Nord dans l'antiquité », Histoire et civilation des origines au V ème Siecle, Ed. Payot, Paris 1991. Page 17

(3) أبو القاسم سعد الله : " أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر ". ش.و.ن.ت، الجزائر ١٩٧٨. ص. ٦٠.

(4) بلعيد صالح : " في المسألة الأمازيغية ". دار هومه. ط. ن. ت. الجزائر ١٩٩٩. ص. ٢٨

(5) ينظر: Julien, Ch. A. op. cit. page 10

(6) عبد الرحمن محمد الجيلالي : "تاريخ الجزائر العام "،الجزء الثاني، بيروت ١٩٨٢. ص. ٣٥

(٧) ينظر:

Salem Chaker : « Langue berbère et influence française ». Le point sur une question délicate, présence francophone, n° 40, 1992. p.p. 79 - 80

(٨) ينظر:

Julien, (Ch. A), « Histoire de l'Afrique du nord - Tunisie, Algérie et Maroc ». Tome I, Des origines à la conquête Arabe (647 Après J.C), Coll. « Bibliothèque Historique » 2ème ED. Payot, Paris 1964. Page 59

(٩) ينظر:

M.A. HADDADOU : « Guide de la culture et la langue Berbère ». ENAL, ENAP. Alger 1998. Page 22

(10) ينظر:

HADDADOU, M. A., op. cit. p. 23

(١١) ينظر:

Gautier, E. F. : « Le passé de l'Afrique du nord ». Le passé reculé. Coll. « Bibliothèque historique ». ED. Payot, Paris, 1952. p.p 24 - 25

(١٢) ينظر: Julien, (Ch. A), « Histoire de l'Afrique du nord ». Op. cit. p. 17

(١٣) ينظر: Ibid, p. 10

(١٤) بلعيد صالح : المرجع سبق ذكره. ص. ١٩

(١٥) مبارك محمد الميلي : " تاريخ الجزائر في القديم و الحديث ". ش.و.ن.ت. الجزائر ١٩٧٦. ص. ٩٢

(١٦) لقبال موسى : " المغرب الإسلامي " منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج ، سياسة و نظم قسنطينة ١٩٦٩. ص. ١٦

(١٧) المرجع نفسه و الصفحة نفسها.

(١٨) مبارك محمد الميلي : المرجع سبق ذكره. ص. ٤١

(١٩) عبد الرحمن محمد الجيلالي : المرجع سبق ذكره. ص. ٣٥

(٢٠) أبو القاسم سعد الله : المرجع سبق ذكره. ص. ٠٧

(٢١) ينظر:

Bousquet, G.H : « Les berbères ». Coll. « Que sais-je ? » n° 718, 3ème Ed. P.U.F., Paris, 1967. p. 10

(٢٢) ينظر: HADDADOU, M. A., op. cit. p. 31

(٢٣) ابن خلدون: " المقدمة ". تحقيق علي عبد الواحد وافي ، ٤ مجلدات, ط ٢. القاهرة ١٩٦٧. ص. ٦٨٤

(٢٤) ينظر:

HADDADOU, M. A., op. cit. p. 13

(٢٥) ينظر:

A. LAROUI: « L'histoire du Maghreb ». un essai de synthèse, Ed. F. Maspéro, Paris 1970. p. 06

(٢٦) ينظر:

Julien, CH. A., « Histoire de l'Afrique du nord ». op. cit. p. 59

(٢٧) ينظر:

Chabot, (J.B.), : « Recueil des inscriptions libyques ». Imprimerie Nationale. Paris, 1940. p. 03

(٢٨) ينظر:

Salim Chaker : « La situation Linguistique dans le Maghreb antique : Le berbère face aux idiomes extérieurs ». Libyca, tome 28, 1981. p. 141

(٢٩) ينظر:

St. Gsell : « Histoire ancienne de l'Afrique du nord », 4ème Edition. Ed. Hachette, Paris 1920 - 1930. (6 tomes) p. 117

(٣٠) ينظر: F. Decret et M. Fantar : « L'Afrique dans l'antiquité », op. cit, p. 140

(٣١) ينظر: F. Decret et M. Fantar : « L'Afrique dans l'antiquité », op. cit, p. 113

(32) ينظر: A. LAROUI : « L'histoire du Maghreb ». op.cit p. 06

(33) ينظر: Gautier, E. F. : « Le passé de l'Afrique du nord » op. cit, p. 143

(34) ينظر: BENABOU, M. : « La résistance africaine à la Romanisation », op. cit, p. 70

(35) ينظر: BENABOU, M. Ibid. p. 269

(٣٦) ينظر: F. Decret et M. Fantar : « L'Afrique dans l'antiquité », op. cit, p. 346

(٣٧) د. محمد فهمي حجازي : " علم اللغة العربية ". مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث و اللغات السامية. الكويت. ١٩٧٣. ص. ٢٧١

(٣٨) لقبال موسى : " المغرب الإسلامي ", المرجع السابق. ص. ١٢٥

(٣٩) القرآن الكريم ، سورة الحجرات. الآية ١٣

(٤٠) لقبال موسى : المرجع السابق. ص. ١٣٨

(٤١) المرجع نفسه : ص. ١٧٩

(٤٢) سورة الشعراء: الآية ٣

(٤٣) سورة الزخرف : الآية ٣

(٤٤) بكير بن سعيد أعوشت : " ميزاب يتكلم تاريخيا - عقائديا - اجتماعيا ". ط. غرداية ١٩٩٣. ص. ٤٤

(٤٥) محمد علي دبوز : " نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة ". ج١ ، ط١ المطبعة التعاونية ، دمشق ١٩٦٥. ص. ١٢٥

(٤٦) علي الشلقاني : " ثورة الجزائر " ، ط. القاهرة. ص. ٩٥

(٤٧) ينظر: Gautier, E. F. : « Le passé de l'Afrique du nord », op. cit. p. 244

(٤٨) أبو القاسم سعد الله : " أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر ". المرجع السابق. ص. ٠٧

(٤٩) عبد الرحمن الجيلالي : " تاريخ الجزائر العام ". المرجع السابق. ص. ١٤٠

(٥٠) ينظر: A. HANOTEAU : « Essai de grammaire Kabyle », op. cit. p. 03

(٥١) ينظر: Bousquet, G.H., « Les berbères », op. cit. p. 83

(٥٢) د. إحسان حقي : " الجزائر العربية " ، ج٢ ط. بيروت ، ١٩٦١. ص. ١٨

(٥٣) لقبال موسى : " المغرب الإسلامي ", المرجع السابق. ص. ٢١

(٥٤) عبد الرحمن الجيلالي : المرجع السابق. ص. ١٤٢

(٥٥) ينظر: MARCAIS Philipe : « Esquise grammatical de l'arabe Maghrebin », Librairie d'Amérique et d'orient, Paris 1977, p. 08

الدكتور حجوي غوني في سطور:

- Doctorate in literature, April 2009
- Magister (Master) in dialectological studies, October 2000.
- Licence in languages and British literature (Bachelor of Art in English language), 1990.
- Teaching Certificate (Teaching English in secondary school), January 1994.
- Baccalaureate: literature, June 1985.